إهـــداء مع التحيـــة
من قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة السلطان قابوس

النص الشعري
قراءات تطبيقية
بحوث مُحَكّمة

الانتشار العربي

النص الشعري
قراءات تطبيقية
بحوث مُحَكّمة

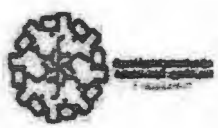

الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-876-4
الطبعة الأولى 2016

توليد القصيدة اللزومية
قراءة أسلوبية للزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعرّي

أ. د. سوزان ستيتكيفيتش[1]

في الجزء الأول من مشروعي في إعادة قراءة الديوانين الشعريين لأبي العلاء المعرّي اقترحت قراءة الديوان الأول سقط الزند من خلال نظرية الأداء (انظر: ستيتكيفيتش «قضايا القصيدة» و«الشعرية الأدائية»). أما الديوان الثاني لزوم ما لا يلزم فنواجه فيه إشكالية جمالية تختلف كل الاختلاف عما وجدناه في سقط الزند بل في تقليد القصيدة الكلاسيكية. ففي هذا الديوان لم يعد العمل الشعري ينبثق عن الاحتكاك الخلّاق بين التحدي الخارجي من الحياة الاجتماعية أو السياسية وبين المتخيل الشعري كما وجدنا في سقط الزند وإنما هو نتيجة خضوع الشاعر لمستلزمات مشروعه المبرمج. لا شكّ في أنّ إنكار أبي العلاء مواضيع (تيمات) القصيدة وبصفة خاصّة قصيدة المدح هو الذي ضيّق الإمكانيات الموضوعية حتى تقتصر اللزوميات على الوعظ والحكمة وبعض الأفكار شبه الدينية أو شبه الفلسفية. إلاّ أنّنا عندما نقرأ اللزوميات بوصفها عملا شعريا منسّقا حسب الترتيب الأبجدي من القافية المزدوجة وما فوق ذلك من الحركات الثلاث والسكون نجد أنّ هذه المستلزمات لها دور حسّاس وخلّاق في إنتاج القصيدة اللزومية (انظر في هذا الصدد الدراسة المهمة لشعرية اللزوميات في شبيرل التفنّنية في الشعر العربي 97 ـ 154). في تقديري أنه من الممكن أن نرى في هذه المستلزمات عملية تجريد جذري في اللغة الشعرية: من حيث المعجم في القافية المزدوجة، ومن حيث النحو والصرف في إنتاج القافية في كل من الحركات الثلاث والسكون. فلذلك أنوي تحليل توليد المعنى في القصيدة اللزومية من خلال الأسلوبية نظرا لأنّ النظرية الأسلوبية تركّز على الدور التعبيري للعناصر اللغوية ـ من النحو والصرف والوزن والقافية.

---

(1) جامعة جورج تاون ـ واشنطن، الولايات المتّحدة.

أ. تجربة في قراءة اللزوميات: المدخل الأول

كثيرا ما نقرأ في المصادر الكلاسكية من أمثال كتاب الأغاني الأخبارالتي تقدّم للمتلقي كلا من الشاعر والقصيدة وأسباب إنشاد القصيدة (انظر: ستيتكيفيتش القصيدة والسلطة). وحتي في ديوان سقط الزند نجد لقصائد أبي العلاء «غرضا» من الأغراض الشعرية من المدح والفخر والهجاء والرثاء إلخ... (انظر: ستيتكيفيتش «قضايا القصيدة»). أما في لزوم ما لا يلزم فكأنه أنكر تقاليد القصيدة الكلاسيكية حتى يقول:

> وقد كنت قلت في كلام لي قديم: إني رفضت الشعر رفض السقب غرسه والرأل تريكته والغرض ما استجيز فيه الكذب واستعين على نظامه بالشبهات. فأما الكائن عظةً للسامع وإيقاظًا للمتوسّن وأمرًا بالتحرز من الدنْيا الخادعة وأهلها الذين جُبلوا على الغشّ والمكر فهو إن شاء الله مما يلتمس به الثواب. وأضيف إلى ما سلف من الاعتذار أن من سلك في هذا الأسلوب ضعف ما ينطق به النظام لأنه يتوخى الصادقة ويطلب من الكلام البرّة ولذلك ضعف كثيرٌ من شعر أمية بن أبي الصلت الثقَفي ومن أخذ بفريّه من أهل الإسلام. ويروى عن الأصمعي كلام معناه: أن الشّعر بابٌ من أبواب الباطل فإذا أُريد به غير وجهه ضعف. وقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب وهو من القبائح. وزينوا ما نظموه بالغزل وصفة النساء ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمر. وتسبّبوه إلى الجزالة بذكر الحرب واحتلبوا أخلاف الفكر وهم أهل مقام وخفض في معنى ما يدّعون أنهم يُعانون من حثّ الركائب وقطع المفاوز ومراس الشقاء.
>
> **(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 1: 38 ـ 39).**

هكذا نرى المعري وهو ينكر القصيدة بكل ما فيها من المعاني والأغراض أو على أقلّ فهو ينكر القيمة الأخلاقية لهذا الشعر ـ أي الصدق. أما ما تبقّى له من الشعر ـ من الوعظ والتحرز من الدنيا الخادعة ـ فيعترف بأنه ناقص من حيث القيمة الخيالية ـ أي أنه «ضَعُفَ»!!

ولكنّ أبا العلاء بدلا من مغادرة ميدان الشعر يقدم لنا مشروعًا شعريًا جديدًا مبنيًا على مقياس جمالي وحيد ـ أي المهارة المتكاملة في القافية. ونرى في ذلك تغيرًا جذريًا من الاهتمام بالمعاني أو الأغراض أو التركيبات البلاغية والمحسنات البديعية بوصفها معايير المهارة الشعرية إلى مهارة تقنية تجريدية. فيقول:

وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف: الأولى أنّه ينتظم حروف المعجم عن آخرها. والثانية أن يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك. والثالثة أنّه لُزم مع كلّ روي فيه شيء لا يلزم من ياء أو تاء وغير ذلك من الحروف.

(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 1: 30).

فالسؤال إذًا هو: من أين تنبثق القصيدة اللزومية وكيف تتولد؟

الإجابة الأولى: نقرأ في كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (568 ـ 646) ما يقدّم لنا وصف تجربة توليد القصيدة اللزومية التي توافق أفكارنا في الاشتعال التلقائي للإبداع الشعري من الاحتكاك بين المتخيل الشعري والتجربة الخارجية:

ذُكِر أنه قُرِئ بحضرته يومًا أنّ الوليد لمّا تقدَّم بعمارة جامع دمشق أمر المتولِّين بعمارته ألاّ يصنعوا حائطًا إلاّ على جَبَل فامتثلوا وتعسَّر عليهم وجودُ جبلٍ لحائطٍ جهة جَيْرُون وأطالوا الحَفْر امتثالاً لمرسومه فوجدوا رأس حائطٍ مَكينِ العمل كثير الأحجار يدخل في عملهم فأعلَموا الوليدَ أمره وقالوا: نجعل رأسه أُسًّا فقال: اتركوه واحفِروا قدّامه لتنظروا أسّه وُضِع على حجرٍ أم لا. ففعلوا ذلك فوجدوا في الحائط بابًا عليه حجرٌ مكتوب بقلم مجهول فأزالوا عنه التراب بالغِسْل ونزّلوا في حُفَرِه لونًا من الأصباغ فتميّزتْ حروفُه وطلبوا مَن يقرؤها فلم يجدوا ذلك وتطلّبَ الوليد المترجِمين من الآفاق حتى حضر منهم رجلٌ يَعرِف بقلم اليونانيّة الأولى المسمَّى لِيطِين فقرأ الكتابة الموجودة فكانت: «باسم الموجد الأول أستعين. لمّا أنْ كان العالم محدَثًا لاتّصال أمارات الحُدوث به وجب أن يكون له مُحدِث لا كهؤلاء كما قال ذو السُّنَّتين وذو اللّحيين وأشياعُهما [فوجَبَتْ عبادةُ خالِق المخلوقات]. حينئذ أمر بعمارة هذا الهيكل منْ صلب ماله محبُّ الخيل على مضيّ ثلاثة آلاف وسبعمائة عام لأهل الأسطوان. فإن رأى الدّاخلُ إليه ذِكْرَ بانيه عند بارِيه بخير فعل. والسلام». فأطْرق أبو العلاء عند سماعِ ذلك وأخذ الجماعةُ في التعجُّبِ من أمر هذا الهيكل وأمر الأسطوان المؤرّخ به وفي أيّ زمانٍ كان. فلمّا فرغوا من ذلك رفع أبو العلاء رأسَه وأنشد في صورةِ متعجِّب:

سيسأل قومٌ ما الحجيجُ ومكّةُ كما قال قومٌ ما جَدِيسُ وما طَسْمُ

وأمر بسَطْر الحكاية فَسُطِرت على ظهر جزءٍ من «استغفِر واستغفري» بخطّ ٱبن أبي هاشم كاتبه. وأكثرُ مَن نقل الكتاب نقل الحكايةَ على مثلِ [ما على] الجزء الذي هي مسطورة عليه.

(تعريف القدماء 53 ـ 54؛ القفطي إنباه الرواة على أنباه النحاة 1: 71 ـ 72).

قد نرى في ردّ فعل أبي العلاء الشعري لهذه الحكاية صدمة ثقافية ذات أبعاد متعددة وذلك أن هذه التجربة قد تجاوزت الحدود المألوفة بين كل من الشعر والدين والفلسفة. فقد كشفت الحفريات لعملية عمارة جامع دمشق ـ أي الرمز المعماري لعظمة الدولة الأموية ـ بقايا هيكل عظيم وقديم قد تفانى بانيه في أيام الزمان تاركا وراءه هذا المكتوب المدهش. ما أثار دهشة المتلقي المسلم هو أنّ الباني «محب الخيل» لا يفتخر من السلطة أو البطش أو الكبرياء التي قد تسبّب العقاب الإلهي وإنما هو يحفظ من خلال عبارة «فلسفية» شهادة لعقيدته التوحيدية وإيمانه وبرّه. ومع ذلك اختفى وتلاشى. وفي ذلك عِبرة مخيفة لكلّ من بني أمية وأصحاب أبي العلاء. أي ـ أننا كلنا مصيرنا إلى الردى وليس فقط أقوام العصاة والظالمين. فهذا على خلاف الرسالة القرآنية من الخلاص من جهة ومن إديولوجية الخلافة والدولة الإسلامية من جهة أخرى. أما في عالم الشعر وفي عالم القصيدة بصفة خاصة فثمّة تداعيات أخرى. أليس الوقوف على الأطلال نقطة الانطلاق لكل قصيدة بل للمتخيل الشعري العربي؟ وهذا الهيكل المدفون الذي كشفته الحفريات لعمارة جامع دمشق هل هو إلاّ دار من الديار الدارسة ومنزل من المنازل المقفرة؟ فكأن هذه الشرارة الفكرية قد أشعلت متخيل أبي العلاء حتى يجمع بين العقيدة الدينية القرآنية ـ أي خسار الظالمين والعصاة وخلاص المسلمين والصالحين ـ وبين معاني النسيب الطللي من تقاليد القصيدة ـ هذه الصور من الماضي المفقود وحتمية الدهر التي تنبّه الشاعر إلى مصيره المختوم.

فإن اتّبعنا هذه الطريق في تصويرنا لتوليد القصيدة اللزومية اعتبرنا الخطوة الأولى التماهي في ذهن أبي العلاء بين الأمة الإسلامية والأقوام الممحوّة من أمثال عاد وثمود والعرب البائدة من أمثال جديس وطسم. وبذلك يصل الشاعر إلى عالم النسيب بكل ما فيه من المعاني والمفردات من المعجم الشعري الخاصة بالمنازل المفقرة والديار الدارسة.

ومن الملاحظ من حيث رفض أبي العلاء القصيدة وأغراضها أنه بذلك يرفض أيضا المسار الإيجابي للقصيدة التقليدية ـ ثلاثية كانت (نسيب ـ رحيل ـ مديح) أم ثنائية (نسيب ـ مديح) بكل ما فيها من الانتقال المعنوي من السلبية إلى الإيجابية من اليأس إلى الأمل من الانفعالية إلى الفاعلية. وفي هذا الصدد فاختتام أبي العلاء هذه اللزومية بإنكار البعث والقيامة ليس نتيجة عقيدة ناقصة أو تفلسف ضالّ وإنما هو النتيجة المحتومة لـ «رفض الشعر» ـ أي رفض القصيدة حتى وجد نفسه حبيس النسيب الطللي.

سيَسأل ناسٌ: ما قُريشٌ ومكّةٌ كما قال ناسٌ: ما جَديسٌ وما طَسْمُ؟
أرى الوَقتَ يُفني أنفُسًا بفَنائِ ويَمحو فما يَبقى الحديثُ ولا الرّسمُ

لـقـد جَـدَّ أهـلُ الـمـلـعَـبـيـنِ فـأثّـلـوا بـنـاءً ولـم يَـثـبُـتْ لـرافـعِـهِ وسْـمُ
وفـي الـعـالَـمِ الـغـاوي بـخـيـلٌ مُـمَـوَّلٌ وسَـمْـحٌ فـقـيـرٌ شـدّ مـا اختـلـفَ الـقَـسـمُ
وكـونُ الـفـتـى فـي رَهـطِـهِ نَـيْـلُ عِـزّةٍ عـلـى أنّ داءَ الـدّهـرِ لـيـسَ لـه حَـسـمُ
ويُـرْزَأُ جـسـمُ الـمَـرْءِ حـتـى إذا أوى إلـى الـعُـنـصـرِ الـتُّـرْبـيّ لـم يُـرْزِإ الـجـسـمُ

(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 2: 377)

الإجابة الثانية: في قراءتنا الثانية سنغَضّ نظرنا عن إمكانية تجربة خارجية أشعلت المتخيل الشعري لتوليد القصيدة اللزومية وبديلا من ذلك سنبتدئ بما قال لنا الشاعر أبو العلاء نفسه. وما قد يلفت نظرنا في الوهلة الأولى أنه لا يتحدّث عن ينابيع الإبداع الفنّي أو الإلهام الشعري ناهيك عن الوجدانية الرومانتيكية وإنما هو يصف مشروعه الشعري بالتكلّف حتى يقول:

> وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف: الأولى أنّه ينتظم حروف المعجم عن آخرها. والثانية أن يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك. والثالثة أنّه لُزم مع كلّ روي فيه شيء لا يلزم من ياء أو تاء وغير ذلك من الحروف.

(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 1: 30) (التأكيد من عندي)

وعلى العموم عندما نتحدث عن الشعر فإننا نربط بين التكلّف والصناعة أي أنه عكس الإلهام والإيحاء والطبع. أوأنه عبارة عن اللجوء إلى بذل الجهد في حالة فشل القوة الخيالية. وفي هذه اللحظة سألتجئ إلى نظرية الأسلوبية نظراً لأنها قد توفّر لنا مداخل تحليلية لقراءة القصيدة اللزومية. وما أقصد بالأسلوبية هو في آخر الأمر شيء بسيط أيْ أننا نبتدئ بالمبدأ الأساسي الذي قدّمه رومان ياكوبسون في دراساته ـ وأشير بصفة خاصة إلى مقالته «شعر النحو ونحو الشعر» وكذلك إلى «التنسيق اللغوي اللاواعي في شعر». ألا وهو: أولا: أنّ الأبعاد اللغوية من النحو والصرف والصوتيات هي جزء لا يتجزأ من اللغة الشعرية التعبيرية ـ وفي ذلك يبدو لي أنّ أفكار ياكوبسن لا تختلف كثيرا عما قاله لنا عبد القاهر الجرجاني عن النظم. وثانيا: أنّ التأثيرات التعبيرية والمعنوية لهذه الأبعاد اللغوية هي بطريقة ما مقصودة من عند الشاعر (انظر: ياكوبسون «التنسيق اللغوي الاّ واعي في الشعر» 250). وأريد هنا أنْ أضيف عنصرا مهمّا إلى ما قدّمه لنا ياكوبسون وهذا بخصوص مشروع أبي العلاء في اللزوميات. وذلك أنّ هذه الأبعاد اللغوية من النحو والصرف ـ علاوة على الوزن والقافية ـ ليست آلات تعبيرية فحسب بل هي مصادر القوة الخلاقة الإبداعية. أي تتولّد القصيدة اللزومية من اللغة وليس من التجربة الخارجية.

ومعنى ذلك أننا نقرأ ونحلل القصيدة اللزومية إبتداءً من القافية: في هذه الحالة الميم المضمومة مع السين (وفي بحر الطويل). فعلينا أنْ نتصور أنّ أبا العلاء طلب من نفسه في يوم من الأيام قصيدة لزومية بقافية الميم المضمومة مع السين. فيُحتمل أنّ أوّل ما خطر بباله اسم العلم «طَسم» وهواسم قبيلة من قبائل العرب البائدة فكثيرا ما نجد طسما مصحوبا في زوج لغوي بقبيلة «جديس». فمن جهة يذكرنا الزوجان جديس وطسم ـ من العرب البائدة زوجين معاكسين: من قريش ومكة. فهكذا يتولّد الطباق الأساسي في البيت الأول. والركن اللغوي ـ الصوتي والمعنوي ـ طسم ـ يولّد أكثر من ذلك. في أول الأمر للكلمة والجذر ط ـ س ـ م معنى:

طَسَمَ الشيءُ والطريقُ... يَطْسِمُ طُسُومًا: دَرَسَ.... وطَسْمٌ: حيّ من العرب انقرضوا. الجوهري: طَسْمٌ قبيلة من عاد كانوا فانقرضوا وفي حديث مكة: وسُكّانها طَسْمٌ وجَديسٌ وهما قوم من أهل الزمان الأوّل وقيل: طَسْمٌ حَيٌّ من عادٍ والله أعلم.

(ابن منظور لسان العرب ط ـ س ـ م)

فيقود طسم بمعنى د ـ ر ـ س إلى مفردات البيت الثاني من «يُفني» و «فناء» و «يمحو» «ما يبقى» وما فوق كل ذلك فتؤدّي كلمة «طسم» من خلال كل من المعنى والصوت إلى الكلمة الأخيرة في البيت الثاني ـ أيْ «الرّسْمُ" ـ هذه الكلمة الجوهرية للنسيب الطللي حيث تعبّر عما بقي بعد عملية الإقفار والمحو:

الرَسْمُ: الأَثَرُ وقيل: بَقِيَّةُ الأَثَر... ورَسْمُ الدار: ما كان من آثارها لاصِقًا بالأرض.

(ابن منظور لسان العرب ر ـ س ـ م)

وإن وجدنا بعدا سلبيا لكلمة «رسم» بوصفها مرتبطة ارتباطًا متينًا بالديار الدارسة وجدنا كلمة أخرى شبه مرادفة لها ومشتركة من حيث الصوت: «وسم». وإن كانت هذه الكلمة نسبيا إيجابية المعنى إلا أن السياق يؤدي إلى نفي بقاء أي أثر. وهلم جرّا... حتى أننا نتصور من خلال هذه القراءة للقصيدة اللزومية أنّ المفردات التي فرضتها القافية اللزومية على القصيدة هي التي بدورها فرضت على الشاعر معنى القصيدة. فالمنطق هنا ليس منطق الأفكار وإنما هو منطق الأصوات ـ أي حرفَي السين والميم ـ والشبكة المعنوية ـ أو السيميوتيكية ـ بين الأصوات والمعاني بين الدالّ والمدلول بين المرادفات والأضداد. فكأنّ كلمة «طسم» التي فرضتها القافية اللزومية على المتخيل الشعري بشكل حتمي أصبحت تسيطر إلى حد بعيد على تكوين القصيدة. حتى لا مفرّ من هذا المضيق اللغوي والمعنوي ولا مخرج من هذه الدائرة

المغلقة من هذا القدر المحتوم لكلمة «طسم». بتقدّم إيقاعي وصوتي لا يقاوم نصل إلى نهاية القصيدة حيث نعترف بأنّ ثمة تماهيا تامّا بين الأصوات والمعاني وأنّ قسم الجسم هو الطسم.

ومما يثير اهتمامنا أيضا وجود لزومية أخرى مع نفس القافية اللزومية المضمومة بل بنفس المفردات في القافية: وهي بالترتيب: قِسمُ وَسمُ جِسمُ طَسمُ رَسمُ حَسمُ وكلمة إضافية في البيت السابع: اسمُ. وعندما نقارن بين القصيدتين نرى عدم وجود كلمة ـ فكرة مسيطرة على القصيدة الثانية مثل ما رأينا في دور كلمة «طسم» في القصيدة الأولى حتى لا نجد هذا التوتّر والتقدّم الحتمي من أول القصيدة إلى الختام المقدور وإنما لا نصل إلاّ إلى حكمة مبتذلة:

إذا ما تَقَضّى الأربعونَ فـــلا تُرِدْ ... سِوى امرأةٍ في الأربعينَ لها قِسمُ
فإنّ الذي وَفّـــى الثلاثينَ وارْتقى ... عليهنّ عشرًا للفَناءِ به وَسمُ
زَمانُ الغَواني عَصرَ جسمكَ زائـــدٌ ... وهنّ عناءٌ بَعدَ أن يَقِفَ الجِسمُ
سألتَ بني الأيّامِ عن ذاهبِ الصِّبا ... كأنّكَ قلتَ الآنَ ما فعَلتْ طَسْمُ
تُريدُ من الدّنيا خلافًا لمـــا مضَى ... وأعياكَ تدبيرٌ بهِ سبَق الرّسْمُ
هوَ الدّاءُ لا يَنفَكُّ يُشكَى ويُشتكى ... ولو شاءَ ربُّ النّاسِ أدركَه الحَسْمُ
مضَى الشّخص ثمّ الذكرُ فانقرضا معًا ... وما ماتَ كلَّ الموتِ من عاش منه اسمُ

(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 2: 378)

واستخدام أبي العلاء نفس المجموعة من المفردات للقافية اللزومية في الميم مع السين يشكّكنا في توليد اللزومية الأولى «سيسأل ناسٌ» من سماع أبي العلاء لخبر الحفريات في دمشق. فيبدو لنا بدلا من ذلك أنه قد جمع هذه المجموعة من المفردات فلعب معها وجرّب الإمكانيات والتداعيات. وفي قراءتي وتقديري أنه في القصيدة الأولى «سيسأل ناس» نجح في إبداع قصيدة لزومية مدهشة وقوية تسيطر عليها كلمة «طسم» بكل ما فيها من المعنى المعجمي من جذر ط ـ س ـ م ومن المعنى الأسطوري من اسم علم لقبيلة من العرب البائدة ومن التداعيات السيميوتيكية مع للردى والفناء والصوتية مع الرسم والوسم والقسم. وكأنّ كل هذه العناصر المعجمية والأسطورية والسيميوتكية والصوتية تمكّن بعضها البعض حتى تؤدي إلى قدر محتوم لا مفر منه: ختام القصيدة في الموت والتلاشي. ومن الممكن في هذا الصدد أنْ نضيف بعض ملاحظات أخرى إلى العناصر الأسلوبية لقراءتنا. أولا أن هيمنة الكلمة ـ الفكرة «طسم» على القصيدة هي نتيجة مكانها المشرف على القصيدة من قافية البيت الأول حيث تسيطر من خلال كل من الصوت والمعنى على باقية القصيدة ونتيجة أيضا لكونها في حالة

الرفع حالة الاسم والخبر والفاعل ـ أيْ حالة الاسم المستقلّ غير المسيطَر عليه. ثانيا أنّ من أهمّ مصادر الإبداع في هذه اللزومية الوقت أو بعبارة أدقّ القفزة الخيالية المدهشة من الماضي البعيد والمنسي إلى مستقبل لم نفكّر فيه إلا في هذه اللحظة. وكأنّ هذه القفزة الخيالية يُعبَّر عنها بمجرّد حرف السين في «سيسأل ناسٌ» ـ ولنضفْ إلى ذلك استخدام ضمير الغائب. وهذا الحرف هو كذلك مصدر المفارقة والسخرية اللاذعة في هذه القصيدة. فلا ينكر أولا يفنّد أبو العلاء العقيدة الإسلامية للبعث والقيامة إنكارا مباشرا وإنما هو من خلال سين الاستقبال غيّر النظر من وجهة نظرنا نحن في الحاضر إلى وجهة نظر «ناس» مجهولين ـ بل لم يوجَدوا بعد ـ في المستقبل.

وفي هذه اللحظة علينا أنْ نتّخذ في عين الاعتبار الجمع بين هذه القصيدة اللزومية وخبر الحفريات في دمشق. وما يلفت النظر في هذا الصدد أنّ هذه الرواية لا تنسب إلاّ إلى القفطي حيث صرح ياقوت الحموي في معجم البلدلن أنه نقل هذا النص من القفطي (تعريف القدماء 54 هـ. 3؛ القفطي إنباه الرواة على أنباه النحاة 1: هـ. 5). وأما استغفر واستغفري لأبي العلاء فهو من أعماله المفقودة. فمهما يكن من أمر فمَن جَمَع بين نصّيْ الخبر والقصيدة أقام لنقل وقتي من المسافة الزمنية الأولى بين الماضي البعيد والوقت الحاضر إلى المسافة الزمنية الثانية بين الوقت الحاضر والمستقبل البعيد. واندهشنا حتى الآن من هذة القوة التجريدية في بعد الوقت. كما علينا أنْ نندهش أيضا من المفارقة في خبر الحفريات الدمشقية تجاه بني أمية والمسلمين وهم على وشك عمارة جامع دمشق أي الرمز المعماري الذي يجسّد سلطة كل من الدولة الإسلامية والدين الإسلامي. أما هوية من جمع بين هذين النصّين ـ أبو العلاء؟ أم القفطي؟ أم شخصية أخرى. . . فالله أعلم.

وكما لاحظنا أعلاه مما يشكّكنا في توليد لزومية «سيسأل ناس» من الخبر الدمشقي وجود نفس المجموعة من الكلمات في قافية لزومية أخرى بصفة خاصة «إذا ما تقضّى الأربعون». في تقديري أنا فهذه اللزومية ضعيفة نسبيًا وإنْ كانت عبارة ظريفة وخفيفة عن معنى من المعاني الشعرية المألوفة من النسيب أيْ الشكوى من الشيب. ولعلنا قد نرجع ذلك الضعف إلى وجود كلمة «قسم» في قاقية البيت الأول مما يقصر عن قوة «طسم» في اللزومية الأولى حتى لا نجد التوتّر والتقدّم الحتمي اللذيْن شعرنا بهما في «سيسأل ناس».

وما قد يدهشنا أكثر هو وجود لزومية ثالثة فيها نفس الكلمات السبع بالضبط في القافية إلاّ أنّ القافية هذه المرّة هي الميم المكسورة مع السين. وأول ما يخطر ببالنا بعد وجود نفس الكلمات في القافية اللزومية للمرّة الثالثة أنّ هذه الظاهرة تفنّد ما اقترحه لنا ستيفشان شبيرل

عمّا قصده أبو العلاء في اللزوميات. فحسب تقدير شبيرل قصد أبو العلاء من خلال برنامج القافية اللزومية في كل حروف المعجم عرض سيطرته اللغوية الشاملة على كل إمكانيات أو محتويات المعجم العربي (انظر شيسرل التفنّية في الشعر العربي 130). وفكرته هذه مقنعة إلى حدّ ما وفي الوهلة الأولى. إلا أنّها لا تفسّر لنا إصرار أبي العلاء على استخدام كل الحركات الثلاث والسكون. وبالإضافة إلى ذلك فهي لا تفسّر لنا تكراره لهذه المجموعة من الكلمات هي كلها كلمات بسيطة وعادية وليست من غرائب اللغة أو غوامضها.

فعندما نجد هذه اللزومية الثالثة مع نفس المجموعة بالضبط من الكلمات في القافية يبدو لنا أنّ أبا العلاء قد كلّف نفسه كلفة رابعة!

لعَمري ! لقد أغنَتكَ صورةُ واحدٍ ... من الإنس في الأقوام عن كُنية واسمِ
ولكنْ بَيانٌ زيدَ فيكَ وإنّما ... جرَينا من الأمرِ القديمِ على رسمِ
وما كان فينا من سَجِيّةِ مُخطئٍ ... قد وُجِدتْ في حيّ عادٍ وفي طَسمِ
إذا ما تفرّقنا خَلَصْنا من الأذى ... ولم يُحوَجِ الرّاعي المسيمُ إلى الوَسمِ
تحمّلْ عن الأرضِ المريضةِ غادِيًا ... ولا ترضَ للدّاءِ العَياءِ سوى الحَسْمِ
وما فَتِئتْ روحُ الفتى في نوائبٍ ... تُمارِسُها حتى استَقَلّتْ عن الجسمِ
صَبَرنا لحكمِ اللهِ والنّفسُ حرّةٌ ... وقد علمتْ فضلَ التّفاوُتِ في القِسمِ

(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 2: 437)

وعندما نقارن بين هذه القصيدة اللزومية في الميم المكسورة وبين لزومية «سيسأل ناسٌ» في الميم المضمومة نندهش أولا من البون الشاسع بين القصيدتين. فقد بدا لنا في قراءتنا للقصيدة الأولى أنها ليست إلاّ النتيجة الحتمية لاستخدام هذه المجموعة من الكلمات التي قد أملتها هي بدورها على الشاعر مقتضَيات القافية اللزومية. وكأن القصيدة ـ على الأقل بعد وقوع الكلمة ـ الفكرة «طسم» في المكان المسيطر على القصيدة وفي حالة الرفع المستقلّة ـ قد تولّدت بتلقاء نفسها من خلال التداعيات الصوتية والسيميوتيكية والأسطورية ل "طسم» حتى لا يكون بوسع القصيدة أن تخرج من عالم النسيب الطللي وهيمنة الدهر والقدر المحتوم. أما في لزومية الميم المكسورة مع السين فكأنّ أبا العلاء أراد أن يظهر لنا أنّ هذه القصائد ليست فقط النتيجة الحتمية لمشروعه المبرمج من القافية اللزومية وإنما هي نتيجة سيطرته الماهرة على الآلات الشعرية. فإذا كانت الكلمات السبع في قافية الميم المكسورة مع السين هي نفس الكلمات في قصيدة «سيسأل ناسٌ» في قافية الميم المضمومة مع السين فإن مصير هذه اللزومية

المكسورة تختلف كل الاختلاف. فكأنّ أبا العلاء بالقافية المكسورة قد كسّر شوكة كل من «طسم» و«رسم» و«حسم» و«قسم» و «جسم» إلخ. . . . فنجدها الآن في حالة الجرّ الخاضعة بدلا من حالة الرفع المستقلّة حتى يخلص كل من الشاعر والقصيدة عن سيطرة أو سلطة النسيب الطللي والدهر. فنجد الشاعر وهو يتجاوز حدود النسيب وكل ما فيها من القضاء والقدر لكي يعلن حرّية النفس وخلود الروح: فما أبعد ختام القصيدة الأولى المحبوس في عالم المادي للجسم البالي وفي حالة اليأس البحت التي لا تشوبها شائبة عن ختام القصيدة الثانية. وكأنّ ردّ العجز على صدر هذا البيت يشدّد الشعور بالدائرة المغلقة لعالم النسيب الطللي. أمّا ختام القصيدة الثانية فيعبّر عن استقلال الروح عن الجسم والصبر لحكم الله والقبول والفهم لفضل التفاوت في القسم. فقد انتقل أبو العلاء من المادّية السلبية إلى الروحانية الإيجابية بما فيها من صبر جميل وفهم عميق:

ويُـرْزَأُ جـسـمُ الـمَـرءِ حـتـى إذا أوى إلى العُنصرِ التُّرْبيّ لـم يُرْزإ الـجسـمُ
ومـا فَـتِـئَـتْ روحُ الـفـتـى فـي نـوائـبٍ تُمارِسُها حتى استَقَلّتْ عن الـجسـمِ
صَـبَـرنـا لـحـكـمِ الـلـهِ والـنّـفـسُ حـرّةٌ وقد علمتْ فضلَ التّفاوُتِ في القِسمِ

(أبو العلاء المعرّي لزوم ما لا يلزم 2: 377 و 2: 437)

فمذا نستنتج من هذه القراءة الأسلوبية لهذه القصائد اللزومية وهذه المقارنة بين القصيدتين؟ أولا يبدو من الاختلاف بين القصائد الثلاث التي تشترك في نفس الكلمات في القافية اللزومية للميم مع السين أنّ أبا العلاء لم يكن يهتمّ بإثبات معرفته الشاملة بغرائب اللغة وإنما كان يهتمّ بإثبات مهارته في مجال القافية. واكتشفنا من المقارنة بين القصيدتين أنّ القافية وإنْ أملتْ المفردات من خلال التداعيات الصوتية والسيميوتيكية فإنها في آخر الأمر لا تُملي أو لا تولّد القصيدة. وإنما ثمة تفاعل خلاّق بين العناصر الشعرية من القافية والأصوات والمعاني وبين المتخيل الشعري في مقدوره أنْ يولّد من نفس المادة اللغوية الخام قصائد متفاوتة كل التفاوت.

كما أظهر لنا أبو العلاء أنّ الكلمات هي هي وأما توليد القصيدة فمن عند الشاعر.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

- أبو العلاء المعرّي. شرح سقط الزند. تحقيق: مصطفى السقّا عبد الرحيم محمود عبد السلام هارون إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد بإشراف» طه حسين. ط 3 5 م. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1406هـ ـ 1986م.
- لزوم ما لا يلزم: اللزوميات. بيروت: دار صادر: د. ت. 2م.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري. لسان العرب. 15م. بيروت: دار صادر: د. ت.
- تعريف القدماء بأبي العلاء. تحقيق: مصطفى السقا عبد الرحيم محمود عبد السلام هارون ابراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد بإشراف طه حسين. الطبعة 3. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1406هـ ـ 1986م.
- جمال الدين أبوالحسن علي بن يوسف القفطي. إنباه الرواة على أنباه النّحاة 2م. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية 1369 هـ ـ 1950م.
- ستيتكيفيتش سوزان. «الشعرية الأدائية»: انظر:

Stetkevych, Suzanne, «Performative Poetics in «Abbâsid Poetry».

- القصيدة والسلطة: الأسطورة الجنوسة والمراسيم في الشعر العربي القديم. ترجمة: حسن البنا عز الدين مع مشاركة المؤلفة. القاهرة: المركز القومي للترجمة: 2010. ترجمة لِ

Stetkevych, Suzanne, *The Poetics of Arabic Legitimacy*.

- «قضايا القصيدة العربية: المناهج والمنهجية: تطبيق نظرية الأداء على سقط الزند واللزوميات: مدخل في إشكاليات أبي العلاء المعرّي. «الندوة الدولية: قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية: النظرية والتطبيق. 21 ـ 24/ 3/ 1431 هـ ـ 10/ 3/ 2010م. بحوث محكمة. الرياض: جامعة الملك سعود 1431هـ ـ 2010م ص. 333 ـ 349.
- ياكوبسون رومان «التنسيق اللغوي الآ واعي في الشعر» انظر:

Jakobson, Roman, «Subliminal Verbal Patterning in Poetry».

- «شعر النحو ونحو الشعر: انظر:

Jakobson, Roman. «Grammar of Poetry and Poetry of Grammar».

المصادر الأجنبية

- Jakobson, Roman. «Poetry of Grammar and Grammar of Poetry». In Roman Jakobson, *Language and Literature*. Cambridge, MA: Belknap Press, 1987. Pp. 121-144.

- «Subliminal Verbal Patterning in Poetry». In Roman Jakobson, *Language and Literature*. Cambridge, MA: Belknap Press, 1987. Pp. 250-261.

- Sperl, Stefan. *Mannerism in Arabic Poetry: A Structural Analysis of Selected Texts (3rd century AH/ 9th century AD - 5th century AH/ 11th century AD)*. Cambridge UK: Cambridge University Press, 1989.

- Stetkevych, Suzanne. «Performative Poetics in Abbāsid Poetry: A Re-Reading of Abū Firās al-Hamdānī's Rā'iyyah: Arāka 'aṣiyya al-dam'i». *Annals of the Japan Association of Middle Eastern Studies* 29-2 (2013): 107-144.

- *Poetics of Islamic Legitimacy: Myth, Gender and Ceremony in the Classical Arabic Ode*. Bloomington & Indianapolis, IN: Indiana University Press, 2002.